رؤية العرب في «الثقافة والإمبريالية»

إبراهيم محمود[*]

بين قراءة تراهن على فاعلية السرد، وأهميته في التاريخ، وحياة الأُمم، حيث الصراع من أجل البقاء، يسم العلاقات بين المجتمعات البشرية، ولأن السرد مرادفُ قوة، وهو سلطة نافذة، وقراءة أُخرى معها، وضمنها، هي القراءة الطباقية، تقيم فاصلاً تاريخياً، بين سلطة مسيطرة سياسية، وسلطة منزوعة القوة، على صعيد عالمي، ينبني صرح البروفيسور الفلسطيني الأميركي الجنسية إدوارد سعيد مفاهيمياً، في كتابه **الثقافة والإمبريالية**[1]، وتتبلور رؤيته للعرب، انطلاقاً من القراءة المذكورة.

فبين قوله «إن الأُمم، كما اقترح أحد النقاد، هي ذاتها سرديات ومرويّات؛ وإنّ القوة على ممارسة السرد، أو على منع سرديات أُخرى من أن تتكوّن وتبزغ الكبيرة الأهمية بالنسبة إلى الثقافة والإمبريالية، وهي تشكّل إحدى الروابط الرئيسية بينهما» (ص 58)، وقوله الآخر «حين نعود بالنظر إلى سجلّ المحفوظات الإمبريالية، نأخذ بقراءته لا واحدياً، بل طباقياً بوعي متآين للتاريخ الحواضري الذي يتمّ سرده ولتلك التواريخ الأُخرى التي يعمل ضدّها «ومعها <أيضاً> الإنشاء المسيطر» (ص 118)، يمكن تتبّع وملامسة الأبعاد الكارثيّة لفعل القوة على صعيد عالمي، ومدى اقتران الثقافة بالإمبريالية من جهة، وكيف تغيّرت إمبريالية القرن التاسع كأُسلوب (ص 82)، وظهرت إمبريالية جديدة ذات قوة مادية ومعنوية (أميركية) لا نزال نعيش همجيتها المزخرفة واستعراضيات القوة فيها (ص 339 وما بعد)، من جهة أُخرى، وفي القلب تتم إدارة العالم الآخر، الطرفي، الهامشي، والتحكم فيه على أكثر من صعيد، ويظهر ذلك في الأمثلة

(*) باحث سوري.

(1) إدوارد سعيد: **الثقافة والإمبريالية**، نقله إلى العربية وقدّم له كمال أبو ديب، ط1 دار الآداب، بيروت، 1997. وترجع طبعته الأُولى بالإنكليزية إلى عام 1993. وقد صدرت في نيويورك، والإحالات المرجعية ـ هنا ـ تخص الطبعة العربية المذكورة.

الحيّة، كما تقدّمها أغلبية روايات القرن التاسع، لـ «ديكنز، كبلنغ، جون أوستن، أو ما بعده جوزيف كونراد، كامو، توماس مان... إلخ)، والدراسات الفكرية المرافقة وتتجلّ حقيقة العالم الطرفي مصادرَة من كل فعل قوة في الغالب، بل تبدو مخترَعَة، ومبثوثة في أذهان سكّانه، عن طريق الضّغط الحواضري (المتروبولي)، وليس العرب ببعيدين عن حركية هذه الحقيقة، وخصوصاً في الآن الراهن.

هكذا نتلمّس رؤية مؤلّف **الثقافة والإمبريالية** للعرب، وهم محصورون بين مطرقة الإمبريالية الغربية، والأميركية في الأوج، وسندان القوى المتنفِّذة، الصانعة لكل قرار مصيري لهم في مجتمعاتهم.....

ما هي مكوّنات هذه الرؤية؟ ما هي أبعادها الثقافية والاجتماعية والسياسية؟ كيف يمكننا قراءتها حقيقةً؟

إن قراءة كتاب **الثقافة والإمبريالية**، بمرتكزاته المنهجية، ومؤلفات أُخرى لِـ إدوارد سعيد، هي التي تساعدنا على بلورة الرؤية المذكورة، التي تظهر على أكثر من صعيد، لافتة للنظر بحق.

دواعي الرؤية

إن قراءة مقطع ذي دلالة، في الفصل الأخير، من كتابه **الاستشراق** مفيدة لنا هنا، في موضوعنا، بعد حديثه عن الشرق، ومدى ارتباطه بالإمبريالية، وخصوصاً عربياً «فالعالم العربي اليوم كوكب تاسع، فكرياً، وسياسياً، وثقافياً للولايات المتحدة. وليس هذا في ذاته بشيء يدعو إلى الرثاء، غير أنّ الشكل المحدّد بعلاقة التكوكبية نفسه يدعو إلى ذلك. خذ بعين الاعتبار أولاً أنَّ الجامعات في العالم العربي تُدار بشكل عام تبعاً لنسق ما موروث عن، أو مفروض مباشرة من قِبَل قوة مستعمرة سابقة. وتجعل الظروف الجديدة واقعيات المنهج الدراسي قبيحة حتى الرعب تقريباً؛ صفوف يحتشد فيها مئات الطلبة، جهاز تدريس مدرَّب تدريباً سيّئاً، ومرهق بالعمل، ويتلقّى رواتب سيئّة، تعيينات سياسية، الغياب شبه المطلق للأبحاث المتقدّمة ولوسائل البحث العلمي، وأهم من ذلك، الافتقار إلى مكتبة واحدة لائقة في المنطقة بأسرها»[(2)].

وإذا كان هذا الكتاب قد صدر بالإنكليزية منذ قرابة عقدين من الزمن، وقد ظهرت عقب أو في إثر، وخلال ذلك تغيّرات كونية، عمَّقت الكثير من تصوّراته حول هذه القضية، وخصوصاً في ما يتعلّق بموقفه من الصراع العربي ـ الإسرائيلي، والعلاقات المتوترة، والممسرحة من ناحية أُخرى، بين العالم العربي، كما يقول، وأميركا، فإنّ

(2) إداورد سعيد: **الإستشراق: المعرفة ـ السلطة ـ الإنشاء**، نقله إلى العربية كمال أبو ديب، ط2، مؤسسة الأبحاث العربية، بيروت، 1984، ص 319.

كتابه الجديد يسعى إلى الإجابة على الأسئلة التي تُولّدها التغيّرات تلك، وما أعقب من زلزال حرب الخليج على الصّعد كافة، والانقسامات العربية، ولجوء معظم الأنظمة العربية إلى تحصين مواقعها سلطوياً، وفبركة شعارات، وتدجين رؤى ثوروية، وشحن الذاكرة الجمعية الشعبية بآمال عراض لا تتحقّق، وأسْطَرة الرموز المتنفّذة، ومسرحة الحقائق... إلخ. والمقدّمة تفصح عن مرامه الكفاحي، حيث يشير إلى دور المثقف الكوني، والعربي بشكل خاص، وما يجب عليه القيام به، وهو إيجاد سرديّات مضادة للسرديّات الحواضرية، والتحرر من جاذبية المتروبول، واستنهاض الهمم، حيث يبرز المثقف (بروليتاريا) من نوع مختلف، ومناضلاً يستقطب المشاعر والأفكار بسرديته الكفاحية، في وجه السرديّات المخترعة إمبريالياً، (سردية حقيقية لاستنهاض شعبنا، واستنفاره وتجميع قواه)، بالنسبة لتقرير مصير فلسطين الذاتي، (إن تاريخ الإمبريالية ليعلّمنا أنّه ليس في وسع شيء سوى فكرة حقيقية للتحرير والمساواة أن يقاوم قوة الإمبريالية ويصدّها ـ ص 12).

أهو يأس ممّا هو حاصل في الساحة السياسية العربية؟ ربّما كان الوضع كذلك، لأنّ الحديث عن السّرديات، التي تقترن بطغيان العنف الإمبريالي، وتجلّي ثقافة معبّرة عن الإمبريالية متعدّدة الأوجه (البشعة في عمومها)، ربما كان الفاعلين في تنشيط وعي المؤلف الاستنهاضي، حيث يمكن للكلمة ذات النبرة الرسولية المعاصرة، والصيغة التجييشية، أن تدفع بجمهرة المقهورين، بالاستيقاظ، والتحرر من ربقة الحاضرة، ومن معها في الهامش. ها هو يقول في هذا المقطع: «إن إمبريالية الغرب وقومية العالم الثالث لتتغذيّان إحداهما من الأُخرى، بيد أنهما حتى في أسوأ حالاتهما ليستا واحديتين ولا حتمويتين. وإضافة، فإن الثقافة نفسها ليست واحدية، كما أنها ليست ملكاً حصرياً للشرق أو للغرب، ولا لجماعات صغيرة من الرجال والنساء» (ص 68).

هذا التأكيد على فعالية الثقافة، هو الوجه الآخر لنظام متحرك، مقاوِم، لا يُقبَض عليه، يُقيمه المثقف لنفسه، حتى في قلب المجتمع الذي يبدو مدجّناً من القمة إلى القاعدة، وعلى أكثر من صعيد، هو الوجه الذي يسمح للمثقف بأن يتأمل صورته في مرآة خاصة بها، وعبرها يتحرك صوب المستقبل ـ رغم تأكيده من جهة أُخرى، على عنجهية وفظاعة الأمبريالية في صنع ثقافة هي مسرحها اليومي والحيوي (ص 66 ـ 67 مثلاً). وبصورة خاصة (ص 79).

وضمور الوعي القومي المميّز في الأطراف، وتحوّله إلى قوة مضادة للهوية القومية، والتمايز الحضاري، وسلطة مضادة للفعل الهويتي الحقيقي، وخلق وعي قوموي سلبي موظَّف، وتخديمي «إنّ القومية الاستدفاعية القائمة على ردّ الفعل بل الارتيابية < المصابة بخبل الريبة > كثيراً ما تحاك للأسف، في صلب نسيج التعليم والتربية، حيث يلقَّن الأطفال، كما يُلقّن من يكبرونهم سنّاً من الطلبة أن يُجلّوا ويحتفوا بفذاذة تراث «هم» (عادة وبطريقة بغيضة، على حساب تراثات الآخرين... إلخ» (ص 70).

طبعاً هذا لا يتمّ إلاّ لأنَّ هناك تراجعاً في تنفيذ الوعود، الوعود بتحقيق كل الشعارات المنادى بها، من توفير فرص العمل المختلفة، وترفيه (المواطن)، إلى إعطاء التفكير أوسع مدى له من الحرية لكي يبدع، وهو فخور بوطنه. ثمّة إحالة باستمرار إلى غائب لا يحضر، مشفوع ومسرور بالقدسي، وممزوج بما هو وطني وقومي، إذ يستحيل الفصل بين ما يُنادى باسمه، كرمز وطني، وقومي، وكبطل شعبي مؤسطر، وتزداد الحالة هذه، كلما تأخّر (انتظار غودو) وطال ـ إن جاز التعبير ـ وفي العمق يتمّ المزيد من تشظية القيم والهوية ذاتها، وإذ تمثّل الذاكرة الجمعيّة للشعب مجالاً خصباً، للمتنفّذين، للرهان عليه، فإن الذاكرة هذه تنشغل بكل الصور المولفة، والتركيبات النفسيّة التي تعزّز من ثقة المجموع (الشعب) بمن يمثّله، أو يُعنى بأمره، ولكن بالمقابل تشهد تقسيمات وانقسامات ضاغطة، تتمّ في السرّ، وفي العلن عند الضرورة، للإعلام عن قوة من يحكم القرار ويملكه، ولترويض أيّة فكرة ممكنة، تتهيّأ لأن تكون سردية مقاومة لما هو سائد، ومروَّج له.

هكذا يرى المؤلف أنه في العالم الثالث، والعالم العربي ضمناً أنّ «ثمّة عشائرية جديدة، ومقيتة فيما أرى، تُصدِّع المجتمعات، وتفصل بين الشعوب، وتشجع الجشع، والنزاعات الدموية، والتأكيدات الخالية مما يشوف على خصوصيات ثانوية عرقية أو فئوية» (ص 90).

هذا القول الوصفي التشخيصي، يقوم عل أرضية (فانونية)، ويتداخل مع ما كان يقوله فانون حول ذلك: «إن الحزب الذي يزعم أنه حزب قومي يتصرف تصرف حزب قبلي. إنه قبيلة صارت حزباً. إن هذا الحزب الذي ينادي بالقومية ويؤكد أنه يتكلم بلسان الشعب كله، يمارس في السرّ دكتاتورية قبلية حقيقية، حتى لقد تكون هذه الدكتاتورية القبلية صريحة مكشوفة في بعض الأحيان، ونحن لا نشهد عندئذ دكتاتورية بورجوازية، بل دكتاتورية قبلية... إلخ» (ص 103).

فانون يتكرر في وعي إدوارد سعيد ويحضر في معظم صياغاته وخصوصاً تلك التي تتعلق بقراءته الطباقية، أو بمفهومه للسّرد، وأبعاده الوظيفية، وهو لم يتجلّ بمثل هذه القوة، إلاّ لأن ما كان يراه ويعاينه الأول، يتلمسه ويراه ويعيشه هو، على صعد مختلفة، بالرغم من أن ما يثيره إدوارد سعيد بات على أكثر من صعيد تحصيلَ حاصلٍ، وبداهة مرئية ومعلومة، لا تتطلب برهاناً، إذ ليس هناك ما يجرّد سلطة ما، من أبهتها، وليس هناك ما ينزع عنها مصداقيتها في ما تدّعيه، ويفندها ذاتياً، مثل ما تقوم به هي على أرض الواقع، وما هو ملحوظ، ومعاش بين أفراد الشعب، وفي ما يخصّ إدارة العمل في المؤسسات، وتوزيع الدخول.... يتأكّد ذلك من خلال تركيزه على الواقع المعاش، والمسكون بالإحباطات، وتزييف الرأسمال الرمزي الملهم للإنسان العادي في الشارع، والتحكّم في قواه، وتفريغها من كل معنى مختلف، وفي القلب تعريض المثقف للنفي المزدوج: في مجتمعه، حيث يحرم من كل فعل تواصلي، وطرح معنى محرض للنفس

الموهمة بأنها تعيش رضاءها المأمول، ويراقب، على طريقة فوكو (في المراقبة والمعاقبة)، وخارج بلده، حيث يسعى إلى الإساءة إليه ـ وكأنه (أي المؤلّف) حين يتحدّث عن ذلك، فكأنما يكتب نفسه، ويعترف بواقع حاله، والعنف الذي يتعرض له بطرق مختلفة (هو الآن من أكثر معارضي نهج عرفات في فلسطين)، «ويشهد على وجود مشكلات حقيقية في الديمقراطية والتنمية والمصير، التعذيب الذي تمارسه الدولة ضدّ المثقفين الذين يعتنقون أفكارهم ويقومون بممارساتهم علناً وبشجاعة» وهكذا هو الحال مع منيف أونقوغي أوفايز، وهؤلاء يتوزعون في الأطراف، الذين يمقتون الاستعمار المزروع أو الإمبريالية التي منحته القدرة على الاستمرار» (ص 88).

أبعاد الرؤية وتجليّاتها المختلفة

لكي نحكم على شيء ما، ونقيّمه، قد لا نحتاج إلى المزيد من التمعين الفكري، والتحليل العقلي لمعرفة ذلك، فالعين التي ترى وتنظر هنا وهناك، والأنف الذي يشمّ الروائح المحيطة، واليد التي تتعامل مع ما هو ملموس، والفمّ الذي يأكل، والأذن التي تسمع الأصوات... إلخ، إن كل ذلك قد يرتقي إلى مستوى الوثيقة التاريخية للنطق بالحكم على وضع ما، فأن يكون هناك تشنج جسدي، قد يكون كافياً للإشارة إلى مأساة مجسّدة ! ثمة شعور بالخزي المرافق لفرحة الوعي في اكتشافه لما يجري عربياً، يبرز في ما يكتبه المؤلف، وهو يمارس مسحاً جغراسياسياً للمنطقة العربية، عندما يقول «كانت بيئتي العربية إلى حدٍ بعيد بيئة استعمارية، لكن كان بوسعك في صباي أن تسافر براً، من لبنان وسوريا عبر فلسطين إلى مصر والأقاصي الغربية. وأما اليوم فإن ذلك مُحال. ذلك أن كل بلد ينصب عراقيل كأداء على حدوده»، «والعبور بالنسبة للفلسطينيين تجربة مريعة بشكل خاص. فكثيراً ما تعامل الدول التي تؤيد فلسطين بصوت عال الفلسطينيين الفعليين أسوأ معاملة». «إن القومية العربية لم تمت، غير أنها في كثير من الحالات قامت بحل نفسها إلى وحدات أصغر فأصغر» (ص 355).

المفارقة هنا، أنه في أيام الاستعمار لمناطق متفرقة في العالم العربي، كان يسهل انتقال أحدهم من خطر إلى آخر، بصورة أقل تكلفة ومشقة، ولكن اليوم، أو راهناً، تدخّلت الإيديولوجيات المسواقة، ورأسماليات أولي الأمر المتصارعة، والتي تتّخذ الواقع رهاناً، تشتبك على أرضه، وصارت القومية على أكثر من صعيد مطيّة لأفكار ممسرحة، وبناء طموحات إرادوية فوقية، تستهلك قوى الجماهير، وتستعبد ذاكرتهم الجمعية. بالمقابل من هنا، نعثر ـ وبسهولة ـ على تلك المفارقة المشهدية في الشارع، وفي غيره من الأماكن التجمعية، كيف تُتَّخذ صور لنجوم في الغرب، أو أميركا خصوصاً، رموزاً تثير خيالات المراهقين، وتداعب الكثير من المقهورين من الشباب، عبر آلية عنف متراكمة، ومتجدّدة، كما في حال (سيلفستر ستالوني، جان ڤاندام، كاسندرا، كلوديا كاردينالي... إلخ)، وكيف أن أطفال المدارس واليافعين، يتابعون باهتمام بالغ القوة

الاستعراضية لهذه النجوم، ويتم تفضيل أفلام رامبو أو جان ڤاندام خصوصاً» على أفلام ممثل غني عن التعريف، هو «نور الشريف» أو «عادل إمام» في أفلامه الأخيرة. إن المقهور يبحث عن التعويض أحياناً خارج حدوده ! ربما سبب ذلك هو مَحْقُ كلّ شعور بفردية متمايزة، هو إشعار كل من يعي أنه منزوع الشخصية، ومهدّد في العمق، وأنه ليس سوى قوة مستثمَرة لغيره، وضد ذاته، وأنه مقصود باستمرار، في ظل مركزانية محلية مستبدّة، «ذلك أنّ مرضيات القوة الجديدة، بعبارة إقبال أحمد، تؤدي إلى ظهور دولة الأمن القومية، وحكم الطغاة < الديكتاتوريات > ، ودول الطغم والشلل الحاكمة، وأنظمة الحزب الواحد» (ص 321).

هذا يذكّرنا بالتداخل بين العنف المبرمج الحواضري، ومثيله الأطرافي، وبصورة أكثر رعباً، فالعنف الحواضري ـ على الأقل ـ هو عنف الآخر، الغريب، لنقل العدوّ، اللاأهلي، الغازي، لكن عنف الأطرافي «ابن البلد»، حامل الراية القومية ذات يوم، أو المبشّر بالديمقراطية، ووحدة البلاد، ومقاومة الأعداء.. إلخ، يكون أمرّ وأقسى، لأنه مضاعف ـ وهذا ما حصل بعد خروج الاستعمار التقليدي، حيث جرى ويجري تشويه كل ما يتعلّق بإنسانية الإنسان ـ ويتطلّب ذلك قراءة متمعّنة في محركات هذا العنف، ولذلك يقول «إن دارسي السياسات ما بعد الاستعمارية، في اعتقادي، لم ينظروا بإمعان كاف إلى الأفكار التي تقلّص وتحدُّ من السُّننيَّة والفكر السلطوي أو الأبوي، والتي تنظر نظرة صارمة < نقدية > إلى الطبيعة القسرية لسياسيات الهوية. وربما كان السبب في ذلك أن أمثال عيدي أمين وصدام حسين في العالم الثالث قد اختطفوا القومية إلى درجة تامة وبطريقة شنيعة ومروّعة» (ص 277).

هذا السرد التحليلي السعيدي، لا بدَّ أنه مكتوب ضمن إطار (مزالق الشعور القومي) في **معذَّبو الأرض** لـ فانون، ولا بدّ للمرء وهو يقرأ كلّ ذلك أن يستحضر خلال العقدين الماضيين على الأقل، وما جرى عربياً، من تغيير وسفك دماء عشرات الألوف، بل مئاتها، وخصوصاً في العراق، لا لشيء، إلاّ لإثبات خوارقية القائد التاريخي العتيد.

وهذا العدد الضخم من الضحايا، ربما يفوق عدد كل أُولئك الذين استشهدوا وقُتلوا دفاعاً عن بلادهم، وفي مواجهة المستعمرين جميعاً، منذ قرن ونيف، وكما في محاولة إلغاء كيان دولة سياسياً، وهي الكويت، دون مبرر: «وبالرغم من أن العراق ادّعى أنّه يرفع فلسطين راية في وقوفه المتحدي أمام إسرائيل والولايات المتحدة، فلا شكّ أن الفكرة في ذاتها، فكرة أنَّ أمة مّا ينبغي أن تُمحى من الوجود على درب المسيرة، هي فكرة إجرامية لا تليق بحضارة عظيمة. وإنه لمقياس للحالة المقيتة للثقافة السياسية في العالم العربي اليوم ن تسري مثل هذه البترية فيه» (ص 356).

وهذا يذكِّرنا بكلّ التوترات الموجودة بين أغلب الأقطار العربية، والحساسيات التي تعيشها الأنظمة تجاه بعضها بعضاً، والعنف الذي يستبطن سلوكها، ويغذّيها، لذا يصبح

كل حديث عن الاستقرار والأمن والديمقراطية ضحكاً على اللحى، «ليس ثمّة من ديمقراطية، بأي معنى حقيقي للكلمة في أيّة بقعة من بقاع الشرق الأوسط الذي لا يزال قوموياً، بل ثمة إما طغم <أوليغارشيات> ذات امتيازات، أو فئات أعراقية ذات امتيازات. وأما الجموع الفقيرة من البشر فإنها مسحوقة تحت كلاكِلِ الاستبداد أو حكومات مكروهة متصلبة لا تلين ولا تستجيب» (ص 356).

كل ذلك يدفعنا إلى تذكّر الإطار البراغماتيكي الذي تحدّده هذه الطغم، كما يسمّيها المؤلف، لسلوكاتها اليومية، والاعتبارات المنفعية التي تجلو حقيقة ما تمارسه في العمق، ويتّضح ذلك في البنية السياسية الهشّة لها، والسياقات الاقتصادية الضيقة واللافتة للنظر بميزانياتها الضخمة، وأعبائها، ودونية مردودياتها المادية، وسرعة تآكلها، والعنف الذي يُبرمج له في ضوء ذلك، للإحاطة بكل خطر طارىء، حيث الصراع لا يعدو أن يكون بينها وبين مجتمعاتها قبل كل شيء، والدوغمائية، وأنتروبولوجيات الحقائق المسواقة، والإعلاميات الممسرحة على صعيد ما يُسمّى هنا وهناك بـ (التحديات المصيرية المهددة لأمن البلاد)، والمخاطر اليومية التي تستدعي المزيد من التقشف والفقر والإفقار كذلك، كرمى سيادة الوطن والحفاظ على وحدته، تتضح بكل أقنعتها التقانية والموروثة، في سلوكات الطغم المذكورة، في علاقاتها الفعلية مع الأنظمة المعتبرة معادية لأمن شعوبها، وخصوصاً: الولايات المتحدة الأميركية، وهذا يظهر في قول المؤلف «إن بعض الزعماء العرب الذين يقضون حياتهم في التنديد بالمصالح الأميركية ينفقون طاقات كبيرة أيضاً في السعي لإدخال أبنائهم إلى الجامعات الأميركية وفي تدبير حصولهم على البطاقة الخضراء <الأميركية>» (ص 350).

إن اسم أميركا له وقع السحر في نفوس الكثيرين من هؤلاء، وحتى أُولئك الذين يبدون معارضين، ومندّدين بها، في صياغاتهم الإنشائية، وفي ممارساتهم اليومية، لايتوانون عن السعي في الحصول على البطاقة المذكورة. فالحياة الأميركية بكل صَنْجِها الإعلامي، وتقنياتها السياسية، واستعراضيات القوة، واللكنة الأميركية للغة الإنكليزية، والدعاية لمنتجات كثيرة أميركية، لا يخفى ضررها (الدخان مثلاً)، وجاذبية الجنز الأميركي، وبراغماتيكية الأميركي، والمعالجة على الطريقة الأميركية، للسلوك اليومي، والدراسة في أميركا... إلخ، كل ذلك يُعدّ من باب الأماني، والطموحات، التي يرغب الكثيرون عربياً، في تحقيقها. أميركا هي القدوة في النجاح في الحياة حقيقةً لدى هؤلاء!. ومما يؤسف له أن هناك (وما أكثرهم)، من يمارس دعاية لمصداقية المساعي الأميركية في تحقيق السلام في المنطقة، ويؤكد الدور الرسولي الكوني لأميركا، وتاريخ أميركا الحديث والمعاصر حافل بالوثائق والأدلة على زيف كل هذه الادّعاءات[3]. وثمة حقيقة عيانية لافتة للنظر هنا، وهي أن أميركا كلما استعرضت قوتها أكثر، ومارست

(3) انظر حول ذلك نعوم تشومسكي في: **الغزو مستمر**، ترجمة مي النبهان، ط1، دار المدى، دمشق، 1996.

عنفاً، ولجأت إلى استعمال التهديد والعنف المباشر، والتهديد بضرب معين، تلمسنا تقرباً منها من قبل الكثير من طغم المنطقة، وتزلفاً لها.

ومن المعلوم أنه «على مدى جيلين كاملين من الزمان وقفت الولايات المتحدة في الشرق الأوسط غالباً إلى جانب الطغيان والظلم. ولم تساند الولايات المتحدة رسمياً أياً من الصراعات من أجل الديمقراطية، أو حقوق المرأة، أو العلمانية، أو حقوق الأقليات» (ص 357).

وفي ضوء ذلك نشهد على مدى تدهور القيم المراهَن عليها، في السلوك اليومي، بكل مكوِّناتها الدينية، ومحركاتها الدنيوية، وتفكك الوجدان المجتمعي، وتشظّي الذاكرة الجمعية، وتمكّن اليأس من النفوس كثيراً، سلوكاً وقحاً وفظاً، في التعامل مع الإنسان العادي المسحور بحب الوطن، وغواية القومية، وعذوبة التمسك بالهوية، وصاحب الشهادة، والمثقف المعتبر طليعياً، من قبل جهات، لا تتوانى عند الضرورة عن إظهار طغيانها الفعلي، واقتدائها في ممارساتها اليومية، بألد الخصوم، والأعداء المعروفين، وخصوصاً أميركا كنظام، وجهاز قمعي، واستخباراتي مدمّر....

ونستحضر هنا حقيقة ما كان ينادي به ابن خلدون، وهي أنّ المغلوب يقتدي بالغالب في مأكله ومشربه وملبسه، ولأنه وقتذاك لم يكن يعلم أنّ هناك دولة ذات نفوذ هي أميركا، وتستعرض قوتها بطرق مختلفة، وأنها ذات يوم، بعده بسبعة قرون تقريباً، ستغدو القوة الإمبريالية الوحيدة التي تنفرد بمن حولها، والذين يسكنون أقصى الأرض، وسيظهر هناك من يقتدي بالغالب الحواضري (الأميركي في الغالب) بقوته، وحتى بطشه، تجاه بني جلدته.

هكذا تتمّ صياغة وإنشاء الأصلاني الكسول، وتكوينه إمبريالياً، وقد تحدّث في ذلك البروفيسور إدوارد سعيد مطولاً، ويؤرخ لذلك أوروبياً، ويستمر ذلك أميركياً. فقد كان للأوروبي في أواخر القرن التاسع عشر، مدى شيق من الخيارات المعروضة، وكانت جميعها ترتكز إلى مقدمة منطقية هي إخضاع الأصلاني والتنكيل والتضحية به.

1 ـ أحد الخيارات كان متعة ذاهلة عن نفسها باستخدام القوة ـ القوة على الملاحظة، والحكم، والاحتفاظ، والربح، من أراضٍ وشعوب نائية.

2 ـ وثانيها معقلن عقائدي لتصغير الأصلاني ثم إعادة تشكيله شخصاً ينبغي أن يحكم ويدار.

3 ـ الثالث هو فكرة الخلاص والإنقاذ الغربي من خلال «رسالة الغرب التحضيرية».

4 ـ والرابع هو < الشعور بـ > أمان موقف يسمح للمحتل بألاّ ينظر إلى حقيقة مايرتكبه من عنف.

5 ـ والخامس هو العملية التي بها تعاد كتابة تاريخ الأصلانيين، بعد أن يتم

اقتلاعهم من مواقعهم التاريخية في أرضهم، كوظيفة أدائية من وظائف التاريخ الإمبريالية.(ص 195).

هذه الخيارات تعقّدت وتجذّرت أكثر في سياق العلاقات المتعدّدة بين أميركا، والآخرين في المنطقة من صانعي القرار (إذا كانوا بالفعل صانعيه سياسياً!؟)، وكيف يَظهرون (أميركاناً) استعلائيين مستبدي شعوبهم، ولكن بالترخيص[4]!.

يتأكد لنا ذلك بجلاء، من خلال قراءة الكتاب في مقاطع كثيرة، وفي سياق التأثر الأطرافي بالحواضر، على صعيد السلطة. فإذا كان الأوروبيون ـ وكما رأينا ـ في تجليهم الاستعماري والإمبريالي، يؤكدون دورهم الرسولي في تحضير الشعوب (الهمجية)، ولذلك لا يجدون مانعاً من السيطرة عليها، والاستبداد، بغية تحقيق الهدف المزعوم، وقد تكرر ذلك مع أميركا (نتذكّر هنا إدعاءات، زبيغنيو بريجنسكي، وفوكو ياما، وبول كيندي... إلخ)[5]، ويتجسد ذلك في قول أحدهم «لقد أولعت أميركا بالاعتقاد بأن كل ما ترومه هي هو بالضبط ما يرومه الجنس البشري برمته» (ص 343).

وهذا يتحقّق في الداخل الإمبريالي، في المجتمعات الحواضرية، حيث السرد هنا يعادل القوة والسيطرة، عبر سلطة ذات نفوذ تحكمي شمولي، ولأنه «من أجل أن يُحكم البشر ينبغي أن يُحصّنوا، وتفرض عليهم الضرائب. ويعلموا أن يُحكَموا في أماكن مقننة (البيت، المدرسة، المستشفى، موقع العمل)، يتمثل امتدادها الأقصى في أكثر أشكاله بساطة وقسوة في السجن أو مشفى الأمراض العقلية» (كما يجادل ميشيل فوكو ـ ص 383).

1 ـ في الداخل الإمبريالي، عبر لعبة القوة السلطوية، ومن خلال آليات التحكم بمصائر الناس، وإشراكهم في ممارسة السلطة، دون أن يكون ذلك فعلياً، وبرمجة حياتهم، على أكثر من صعيد، وما كتبه فوكو يفصح من ناحية عن شمولية الوعي السلطوي الحواضري (بالمعنى التحكمي)، والإعلان عن أبدية هذه السلطة، وهي تمارس الترهيب والترغيب معاً. فالفردوس الحواضري لا ينفصل عن الجحيم الحواضري، إنه القانون الإمبريالي المطبق في الداخل، وخارجاً تظل السلطة المتروبولية هي صاحبة القرار، في سياقها الإمبريالي، على أكثر من صعيد، وحفنة من المعارضين أوثلة من المناوئين للسياسة تلك، لا تستطيع فعل ما هو مضاد لجبروت السلطة المذكورة.

2 ـ وفي الأطراف، تبرز الجهات المتنفذة فيها، بمثابة قوى غريبة عن مجتمعاتها، دخيلة عليها، وهي تعيد اللعبة المتروبولية المركّبة: ماديّاً ومعنوياً، وتساهم في إفلاس

(4) راجع حول ذلك ما كتبه رياض الريس في **رياح السموم «السعودية ودول الجزيرة بعد حرب الخليج 1991 ـ 1994»**، ط1، دار رياض الريس، لندن ـ بيروت ـ قبرص، 1994. و: **رياح الشمال «السعودية والخليج والعرب في عالم التسعينات»**، ط1، دار رياض الريس، لندن ـ بيروت، 1997.

(5) أنظر حول ذلك ما كتبه مثلاً بريجنسكي في: **أميركا بين عصرين**. و فوكوياما في: **نهاية التاريخ**، و بول كيندي في: **صعود القوى العظمى وسقوطها...** إلخ.

مجتمعاتها قيمياً ومادياً، وتستخدم أساليب ضبط وعسف وعنف محلية، إضافة إلى تلك التي تتميز بها المتروبولات، بالاعتماد على أجهزة عينية رادعة خصوصاً (العسكر)، وإيديولوجيات تسويقية معنوية مائعة (إعلامية)، وهي تخترع سرديات ـ بدورها ـ خاصة بها، وبأمجادها، وببطولاتها، ودورها التاريخي، وعظمة حضورها في التاريخ، وتحويلها إلى رموز ملهمة ذاتية التمركز، لا تتكرّر، وبوسائل مختلقة: سمعية وبصرية وسواها، حيث تغدو الحياة البيولوجية ذاتها للأفراد إنجازاً تاريخياً لها.

وهكذا تغدو معرفة القانون، عن طريق التشجيع على تعلم القراءة والكتابة مدخلاً حيوياً لاستكناه جبروت القانون، في مثل هذه الحالة ـ فبقدر ما يتعلم هؤلاء الأفراد، بقدر ما يتم التعرف على العلامات الفارقة العنفية للقانون، ليستسلموا له! وفي هذا الإطار يتحدث إدوارد سعيد عن تلك العلاقة الواهية للكثير من المتعلّمين، أو الذين يبدون هكذا من العرب، مع اللّغة الإنكليزية، من خلال ربطها بما هو استهلاكي ومظاهري (كلغة تقنية ووظيفية يومية ليس إلاّ)، وذلك في ذكره لإحدى الجامعات الخليجية، والتعامل السيِّئ لها مع الإنكليزية... حيث يقول بعد ذلك «ولم أتبين أي اهتمام حقيقي، إلاّ في بعض المناقشات الخاصة مع بضعة من أعضاء هيئة التدريس، بالآداب الجديدة المكتوبة باللغة الإنكليزية في الجزر الكاريبية، وافريقيا وآسيا. لقد كان < ذلك التعليم > ترافداً شاذاً ومنطوياً على مفارقة تاريخية: للصم < للاستظهار من غير فهم > ، وللتعليم اللانقدي، وللنتائج الصدفية (بلغة ألطف)» (ص 361).

إن هذا يذكّرنا بما قاله في مكان آخر، حول تلك البعثات التي كانت تؤمُّ أوروبا بغرض التعلم، في ما يُسمى بـ (عصر النهضة العربية) منذ مطلع القرن التاسع عشر، حيث «كان الغرض الرئيسي لهذه البعثات المبكرة إلى الغرب تعلم الطرق المتقدمة للرجل الأبيض، وترجمة أعماله، واكتساب عاداته» (ص 318).

وهذا يذكِّرنا بعلاقة الترجمة مع السياسة، وارتهاناتها المعتقدية. فالكتاب المترجم عن اللغة الإنكليزية أولاً، وعن الفرنسية ثانياً، وإذا كان المؤلّف أميركياً، يسهل الترويج له، وطباعته، واعتبار المترجم حضارياً، وكلما برزت هذه العلاقة مختلفة، بعيدة عن (الحواضر): المتروبولية (حتى لو كان الكتاب المترجَم لكاتب روسي ينتمي إلى القرن التاسع عشر، كما في حال تولستوي، دوستويفسكي، بوشكين... إلخ)، فإن القيمة الفكرية أو الأدبية تكون أقل، أما إذا كان المؤلف أفريقيا أو آسيوياً، فعلى المترجم أن يتوقع متاعب جمة!.

وإذا كان هناك إقبال راهناً على ترجمة أعمال أدبية (روائية وشعرية) لكُتّاب أميركا اللاتينية (ماركيز، استورياس، كاربونتييه خوان رولفو، نيرودا... إلخ) أو لكُتّاب أفريقيين (بيتر أبراهامز، كامارا لاي، غينوا اتشيبي، نقوجي واثيونفو، سوينكا، عاصفة... إلخ)، فيدخل ذلك في إطار الرغبة الفضولية للقارىء العربي، وتظل ساحة انتشار هؤلاء ضيّقة بالمقارنة بأُولئك، إذ لا ينسى هنا ذكر الدور الريادي للغتين: الإنكليزية والفرنسية، في

كتابة الرواية أو القصة، وحتى الشعر بعوالمه المختلفة...

بل إن انتشار اللغة الإنكليزية اليوم أكثر من أي وقت مضى، مع انحسار نفوذ منافستها: الفرنسية، حتى في مناطق كانت بالأمس القريب: مناطق نفوذ فرنسية، يفصح عن علاقة الإنكليزية كلغة بالقوة (أميركياً هنا)، عدا عن كونها أصبحت لغة إعلاميائية (ميديولوجية)، وتكنترونية، ودالة سلطة متنفذة، فالكثيرون ممن يتعلمونها، لا يخفون كبرياءهم السيكولوجي، وهم يرطنون بها، ليعبروا بدقة عن إحتوائهم بسحر الإنكليزية الكوني.

حدود الرؤية وحقيقتها

إن عملاً جباراً كـ **الثقافة والإمبريالية** لجدير أن يُحتفى به. وهو يتجلّى كبناء معماري ضخم متعدّد الطبقات والأشكال، وذي تركيبة فسيفسائية حيث يتداخل الأدب الروائي والشعري، مع الدراسة الفكرية والإعلامية، والإعلام البصري.

وهو في فصوله الأربعة، ما عدا مقدمتيه: أولاهما ـ هنا ـ للطبعة العربية، وأخراهما، وهي طويلة نسبياً للطبعة الأصلية باللغة الإنكليزية، لأنه في الأساس مؤلَّف باللّغة الإنكليزية، ويخاطب قارىء هذه اللغة، بالإمكان قراءة كل فصل على حدة، كونه يقدّم صورة جليّة عن مضمونه الفكري المعرفي، وإن كان يتواشج مع الفصول الأُخرى، وبالإمكان كذلك البدء بقراءة الكتاب من الفصل الأخير، ومن ثم التدرج عكسياً ـ وهذا يفصح عن القوة المعرفية للكتاب.

وإذا كان كل مؤلَّف عظيم، يأخذ مساحة جغرافية معرفية أوسع، ويتضمن إشكاليات معرفية أكثر بالمقابل، فإن هذا القول ينطبق على هذا الكتاب، أكثر من كتابه الآخر **الاستشراق** لتعددية مفاهيمه وطروحاته الفكرية.

ولنبق في حدود موضوعنا فقط، ليسهل علينا النقاط التي تبدو إشكالية لنا، أو إلتباسية، ومولّفة بدقة.

إن الاستثمار المفاهيمي لقولات رموز فكرية غربية، له حسناته وسيئاته هنا (مناقبه ومثالبه)، فإذا كان فوكو هو مرجع رئيس، ونبع معرفي، يمنح الكثير من تصوراته، في إقامة الصلات المعرفية مع موضوعه، فإن ذلك يتطلّب منّا عدم نسيان تركيبته المعرفية أو منظومته الفكرية، الذي ينطق في قلب الحاضرة. إن مفهوم (الإنشاء /القوة/ السيطرة) لا يبتعد عن خاصية التمركز الأُوروبي، ونوازعه الاستعلائية، وهو خطاب توليدي، حريص على وحدته، بالرغم من تعددية أوجهه/أقنعته، وليس مكره في إخفاء مضمونه، سوى علامة فارقة لسياسة الجمهرة والبعثرة التي يمارسها الخطاب المذكور في النهاية، بالرغم من فذاذة اكتشافه لآلية العمل داخل الخطاب.

هنا يتم الوقوع في فخ الآحادية، في مصيدة التمثيل دون وعي، إذ يتم انتاج الأدوات المعرفية التي بدلاً من أن تواجه (الخطاب) بحقيقة ما ينبني عليه، فإنها توسع حدوده،

وتحصّن أسواره، وتبرز فاعلية سلطته رمزياً. ويبرز ذلك أكثر في التعامل الصريح مع حديث لوكاش الماركسي في النهاية، والأوروبي أولاً، عن الزمن بدلالاته الاجتماعية والقيمية، وتشيّؤ الإنسان، في المجتمع الرأسمالي، وغرامشي الماركسي الآخر، بخصوص العنف الطبقي الاجتماعي (بالمعنى الواسع للكلمة)، إذ لا يعود الإنشاء ذلك القوة العصيّة على التفكك، والمرادفة للأبدية.

ويظهر فانون المعطف الذي تخرج منه جمهرة من المفكرين في (الشرق والغرب) ومنهم: (هومي بابا، عبد الرحمن جان محمد، بينيتا باري، سبيفاك) وأهمهم إدوارد سعيد بإطلاق[6]، يظهر الصورة النقيضة لـ فوكو، والمكملة له، والمتخلفة عنه في آن. أ ـ النقيضة، وهو يركّز على الهجانة الفكرية، وفي الوقت نفسه على العنف الحواضري، وكيف ينتج مثيله، وبصياغة محلية في الأطراف (كما تسمى). ب ـ والمكملة له، وهو يشكّل إنشاءه الخاص به، بخصوص عنف الأصلاني الكسول، وتدجين ممثل المجتمع الأطرافي لأفراده بخطاب يستوعبهم، ويهيكلهم. جـ ـ والمتخلفة عنه، وهو يمارس آلية تفكير مضادة للحاضرة كنظام وثقافة، أو معكوسة على أكثر من صعيد. وبالنسبة إلى إدوارد سعيد، ربما كان ذلك ممكناً التفكير فانونياً في عهده، حيث الصراع كان شغالاً للعنف النقائضي بين المستعمِر والمستعمَر، ولكن إنتاج الآلية التفكيرية، والعمل بها، على صعد مختلفة، في ظل تنامي إمبريالية كونية ممركزة أميركياً، وضمناً (إمبريالية الأنترنت كثيراً)، يسيء إلى حقيقة الواقع ومفهومه. عدا عن وجود رموز معارضة كثيرين لمجتمعاتهم، وللإمبريالية معاً، في الكثير من المتروبولات الكبرى (رموز دينية وليبرالية وراديكالية... إلخ). وقد يكون (تمثيل المستعمَر، محاورو الأنثروبولوجيا) الصيغة المعتمدة كثيراً في مؤلفه، إذ ثمة إطلاقية في استعمال هذا المفهوم، وجوراً في التعامل مع المعنى الذي يتخلّله. فأميركا بالرغم من الإطار الإمبريالي الذي تضع نفسها فيه، وهي تدّعي تمثيل (الآخر): العربي هنا، إلاّ أنّ ذلك لا يعدو أن يكون التمثيل الممسرح والمناقض لحقيقته واقعاً. ربما كانت اليوم القوة الأولى عالمياً، ولكنها ليست الوحيدة، إذا نظرنا إليها في تجلياتها الكونية، فثمة صراع مصالحي بينها وبين ندّاتها الأوروبيات الإمبرياليات (إنكلترا، فرنسا خصوصاً)، يفصح عن تناقض داخلي، سرعان ما يسعى إلى التخلص من ربقته، بنقل (المباراة الصراعية العنفية) كالعادة إلى الخارج (في الأطراف)، أو في الجوار الحواضري، أو في النقاط الضعيفة عند الضرورة (جنوب إيطاليا، إيرلندة، يوغسلافيا.. إلخ)، وهي لن تكون الأخيرة، ولا تشكّل نهاية التاريخ، كما يروج لذلك، على لسان «فوكوياما وغيره[7]. إن وعي التناقض الكوني، هو الذي يحرّر الوعي من الثنائيات

(6) راجع حول ذلك صبحي حديدي في: «الخطاب ما بعد الكولونيالي: في الأدب والنظرية النقدية المعاصرة»، في مجلة **الكرمل**، العدد 47، 1993، وما كتبه عفيف فراج في: «المقهور يصادم جيوش الكلمات»، عن: الاستشراق، في مجلة **الآداب اللبنانية**، العدد 76، 1994، ص 66 وما بعد.

(7) انظر ما كتبناه في «فلسفة نهاية التاريخ الاميركية»، في مجلة **المستقبل العربي**، العدد 164، 1992.

التضادية، والقراءة الطباقية المعتمدة، حتى بالنسبة لتغيرات المنطقة عربياً.

ولعلّ مفهومه للتأويل الدنيوي، يطيح بكل حضور ووزن الرأسمال الرمزي الديني، ويمنح الدنيوي قوة ميتافيزيقية ضمناً، على حساب الآخر، فالدين بكل تعددية تأويلاته يساهم بحذاقة، وبتفاوت في بنيان التأويل الدنيوي والأكثر لفتاً للنظر، هو ربط كل معرفة بالغرب، بالقدوة ـ فالبعثات العلمية هي لتقليد الأوروبي ـ وهذا المتصور تبسيطي اختزالي للمفهوم. ولو أننا اعتمدناه، فإن رهانه على فانون الذي تعلَّم في مدارس أوروبية، كمثال ساطع هنا، سرعان ما يتداعى، بل إن ثقافته في أُصولها الغربية في العمق تفقد مصداقية ما تؤكّد عليه فكرياً ! وهذا ينطبق على رؤيته للعرب، وعلى أكثر من صعيد، إذ إن القراءة الطباقية ـ كما مورس في الكتاب ـ تبقى منزوعة الشمولية في وعي تعددية المعاني للواقع، فالانشاء ليس ثابتاً بقدر ما يتحرك، مشغولاً بما يكوّنه، من قوى ليست متعاضدة باستمرار، ولعبة السرد ليست متناغمة مع السائد.

فإذا كانت (السلطة الفلسطينية)، ومن منظوره، تشكِّل الآخر، الأصلاني، الممثّل، فإنها في حقيقتها لا تمثل الفلسطينيين جميعهم، وهكذا بالنسبة إلى العرب جميعاً. ثمّة إذاً قراءة أفلاطونية، وإن بدت حداثية، لحركية الواقع، تفتقر إلى غنى الواقع، عندما تمارس فصلاً بين (الأنا) و (الآخر)، وتنظّر للهوية في وحدتها السكونية، أو في انقسامية ثنائية، هي إعادة لمفهوم (التمثيل: تمثيل المستعمَر)، وهذا التمثيل تصوري، أو يدخل في عداد السرد الاستعراضي، لا الواقعي التاريخي، فالقوة الممثّلة في الآخر المعارض، وهو يعني الخارج على السرد الرسمي، ويتجسّد في جمهرة المثقفين المندّدين بما هو سائد، ليست ستاتيكية في حقيقتها، بقدر ما تنشغل بما يضاف إليها من عناصر قوة أُخرى، قد لا تكون عيانية مباشرة، وإنما تتشكّل في العمق الخفيّ في الواقع، ويبرز ذلك في تلاقي تلك الأصوات الغاضبة، والمسكونة بعنف صامت، في أكثر من بقعة عربية، أصوات عربية، وغير عربية تشعر بانتمائها الكوني، وبخطورة التحديات المصيرية التي تهدد الجميع دون استثناء، وقد لمح إلى ذلك في نهاية كتابِهِ بصيغة إرشادية، وهذا يمثل اعترافاً، لا مفر منه، بفضيلة الحقيقة التاريخية، وخروجاً شجاعاً، على الحقيقة النفسية، والمتخيلة كثيراً !